



يتوضّح أكثر بعد معركة حلب أن روسيا تسير في خيار الحسم العسكري، وإنْ كانت تعمل على ذلك بـ "هدوء"، أو بـ "بطء". فقد سكّنت الجبهة الجنوبية بالاتفاق مع النظام الأردني. وأخذت تقطف ثمار الحصار الطويل لكل المدن والبلدات في محيط دمشق، من خلال تحقيق "المصالحات" التي تقتضي خروج المقاتلين والسكان منها. وقررت حسم الصراع بالقوة في حلب وإدلب والشمال عموماً، بعد أن سمح لتركيا بالسيطرة على شريطٍ من حدودها مع سوريا في حرب ضد "داعش". وهي غير مهتمة بـ "داعش" ومناطق سيطرته، لأنها تستطيع استعادتها بـ "هدوء" حين تريد، لأنها تخدمها من خلال السيطرة على مناطق النفط التي باتت من حصة الشركات الروسية، وحيث تحكم في جزء منها هناك. لهذا لم تقاتل مسلحي "داعش"، على الرغم من "الأفلام" التي نشاهدنا بين حين وآخر، ويبدو أنها تريد الآن تشكيل "معارضة معتدلة"، قبل الاتفاق مع النظام، لكي تقول إنها أنهت الصراع الطويل في سوريا، وأعادت الهدوء إلى هذا البلد.

يتمثل المنظور الروسي في حسم الصراع بالقوة وفرض بقاء بشار الأسد ونظامه. ولهذا، يستخدم قواته الجوية والبرية، ويعتمد على مليشيا طائفية من بلدان عديدة. هذه هي، باختصار، الإستراتيجية الروسية التي استخدمت سوريا حقل تدريب لجيشه، وتجريب سلاحها الجديد، واستعراض قوتها لكي تزيد من مبيعات سلاحها.

وهي تريد احتلال سوريا من أجل مسائل عديدة. أولها إستراتيجي، يتعلق بأن سوريا مرتكز توسيع السيطرة على "الشرق الأوسط" الذي يعيش حالة انسحاب أميركي. وثانيها عسكري، يتعلق بتوفير قواعد بحرية في سوريا من أجل الهيمنة على البحر المتوسط، وقواعد جوية وبرية لـ "حماية مصالحها" في سوريا وـ "الشرق الأوسط". وثالثها الحصول على مصالح اقتصادية، تتعلق بالنفط وإعادة الإعمار ومشاريع تقطف ثمارها الشركات الروسية. ورابعها التحكّم بخطوط النفط والغاز، لكي تمنع كل إمكانية لمد خطوط عبر سوريا، تنافس روسيا في أوروبا.

ولا شك في أن ذلك كله "مصيري" وحاسم لروسيا، البلد الإمبريالي الذي يريد كذلك منع التنافس، كي يُبقي أوروبا في حاجةٍ إليه فيما يتعلق بالنفط والغاز. لهذا، تسعى إلى فرض الاحتلال على سوريا، وليس فقط إقامة علاقات متميزة، لأن هذا هو ما يضمن لها ذلك كله، وأن ضرورة إقامة قواعد عسكرية يعني فرض الاحتلال، كما أرادت وترى أميركا في العراق. وتدفعها كل هذه الأمور إلى الجسم العسكري، والسيطرة على كل سوريا (وهنا، يصبح كل حديث عن التقسيم لعبة مسلية، هدفها تشتيت النقاش وتضييع الحقائق). لكن، لنفترض أن روسيا استطاعت، بكل تفوقها العسكري، أن تسيطر على كل الأرض السورية، فهل تستطيع ضمان قدرة النظام على الحكم؟

السؤال نابع من ملاحظة بسيطة، هي أن النظام لم يعد يمتلك جيشاً، وهذا ما اعترف به بشار الأسد في صيف سنة 2015 مقدمة لطلب التدخل الروسي، حيث هناك بقايا جيش، وعصابات تسمى "الجيش الوطني"، وحتى فرق الجيش باتت تتشكل من هذه العصابات، بعد فرار أغلبية الجيش أو انشقاقه، وهروب الذين يطلبون إلى الخدمة العسكرية، ومقتل آلاف منه. ولهذا، من يقاتل الثورة "قوى خارجية". هكذا بالضبط، وهي حزب الله والمليشيا الطائفية العراقية والأفغانية والباكستانية، والحرس الثوري الإيراني، ومرتزقة من فلسطين ولبنان وغيرها. وبالتالي، كيف يمكن أن يحكم بعد تحقيق "الانتصار"؟

أمام روسيا خيارات. الأول الاعتماد بشكل مستمر على هذه القوى التي هي خاضعة لإيران، وهذا يعني أن على روسيا أن تقاسم إيران في "الفناء"، ومنها القبول الروسي بمذكرة خط أنابيب الغاز الذي وقعته مع بشار الأسد سنة 2010، وضمان مشاريع اقتصادية لها، وسداد ديون النظام لها. وأيضاً أن تقبل سياسات إيران التي تستغل حزب الله من أجل التفاوض، حيث تريد السيطرة على سوريا ولبنان (والعراق واليمن) كما يصرّ قادتها. ويتناقض هذا الأمر مع تحالف روسيا مع الدولة الصهيونية التي تريد إنتهاء وجود حزب الله، وإبعاد إيران عن حدودها. ولا شك أن ذلك كله يتناقض مع مصالحها هي، حيث تريد السيطرة الأحادية على سوريا، ومذكرة سلطتها إلى "الشرق الأوسط". والخيار الثاني أن تأتي بقواتها هي، لكي تصنع أرجلًا لنظام تزيد استمراره، وهذا يورّطها في حرب طويلة، وهي حرب ستحدث، حتى وإنْ اعتمدت على قوى إيران.

تحتاج إعادة بناء جيش سوري إلى زمن طويل، وربما لا يكون ممكناً ذلك نتيجة "غياب الشباب" الذي يقبل الخدمة العسكرية، بعد أن جرى تهجير أكثر من نصف السكان، وفرار شبابٍ كثيرين من مناطق النظام، وحتى من "داعميه". بالضبط لأنهم لا يريدون المشاركة في هذه الحرب الفدرا، بعد أن فقدت تلك المناطق عشراتآلاف الشباب في حرب النظام ضد الشعب، ومن أجل إجهاض الثورة. والعجز عن بناء جيشٍ جديد يعني أن على روسيا إما أن تقبل بتقاسم مع إيران، وهو تقاسم غير مضمون النتائج، أو تزيد من قواتها البرية، وهذا أمر يغرّها في أفغانستان جديدة. فهل تقبل أن تبقى المعادلة الحالية بعد أن تحسن الأمور؟

هذه هي معضلة روسيا في سوريا، حيث أن "انتصارها" لن يكون مكملاً، وسوف يخضع لظروفٍ تقلل من قدرتها على السيطرة واحتلال سوريا. وأشار إلى ذلك انطلاقاً من بديهيّة واضحة، هي أنه حتى وإنْ استطاعت روسيا السيطرة على كل سوريا، فإن الحرب ضدها ضد النظام لن تتوقف، وإنْ اتخذت أشكالاً جديدة، فليس من انتصارِ حاسم ممكن لها في كل الأحوال. ولا شك في أن تمسّكها ببشار الأسد، وببنية النظام كما هي، من دون أن تقدم "تنازلات" واحداً، سوف يفرض عليها أحد الخيارات السابقتين، أي الاعتماد على قوات إيران وملحقاتها أو إرسال قواتها.

لا بد، في الحالة الأولى، من أن تقدم تنازلاتٍ لإيران، وهو ما لا تستطيعه، أو إرسال قواتها، وهذا سيدخلها في أفغانستان جديدة، ربما أسوأ من السابقة، خصوصاً وأن الوضع العالمي يعني من سيولةٍ وتحولٍ في التحالفات، يمكن أن تقود إلى تصارع مصالح في سوريا، يعزّز من الصراع ضدها. والأهم هنا هو أن الشعب الذي ثار لن يقبل الهزيمة التي تمثل بقاء

بشار الأسد ومجموعته. وبالتالي، سوف يستمر العمل المسلح ضد النظام وحامليه من إيران إلى روسيا، ولسوف يتخذ أشكالاً أفضل مما جرت ممارسته منذ ثلاث سنوات. فحرب العصابات هي التي ستكون الرد المناسب على وضعية مفروضةٍ من بقایا نظام وسلطة احتلال وأدوات طائفية. ولكن، يمكنها تحويل وجهة الصراع من روسيا في حالة واحدة فقط، هي إنهاء سلطة بشار الأسد ومجموعته، وإعادة بناء الدولة على أساس تشاركية. فهذا هو المدخل الوحيد لبناء قوى عسكرية تحمي الدولة، حيث إنها الخطوة التي تسمح بعودة عشرات آلاف الفارين من الجيش، وتهيئة القوى التي تقاتل الآن ضد النظام، وتحقيق "قبول شعبي" بشكلٍ ما. على الرغم من أن الصراع سوف يستمر بأشكال أخرى، نتيجة الحاجة لتحقيق مصالح الشعب، الاقتصادية والسياسية، فالشعب يريد العيش الكريم والديمقراطية، هذا هو ملخص الحرية التي يريدها، وطرحها منذ البدء.

العربي الجديد

المصادر: